محاضرات في فقه اللغة العربية

المحاضرة الثامنة

المرحلة الأولى

اعداد

م.م. ميسرة عباس عبدالجبار

المبحث العاشر

اســم المفعــول

(من ظواهره الأسلوبية)

تمهيد :

عدد وافر من البحوث والدراسات المعاصرة تناول (الأسلوب) و (الأسلوبية) نشأة وتطورًا ، مفهومًا ومصطلحًا، روادًا ومدارس ، سماتٍ ومحدداتٍ ، وصلات بعلوم أخرى كالبلاغة وعلم اللغة والنقد الأدبي وعلم النفس وعلم الإحصاء ... و في الكتب المصنفة لهذه القضايا ما يغني عن إعادة القول فيها . ولعل مما يجدر ذكره مما له صلة بالقرآن الكريم ، وعلم الأسلوب والأسلوبية ما يلي :

١- احتفى الدرس العربي منذ القرن الثاني الهجري بدراسة الأسلوب في مباحث الإعجاز القرآني التي استدعت - بالضرورة - ممن تعرضوا للتفسير أن يتفهموا مدلول كلمة (الأسلوب) عند الموازنة بين أسلوب القرآن الكريم وغيره من أساليب الخطاب. فقد كان لجهود أبي عبيدة (ت ١٠5هـ) ، والأخفش سعيد بن مسعدة (ت207 هـ) ، والفراء (ت ٤١٠ هـ) أثر في إثراء مفهوم الأسلوب على الرغم من تباين الأهداف التي سعوا إليها.

2- ثمة خصوصية في أسلوب القرآن الكريم لا يمكن تجاهلها ؛ فهذا الكتاب العربي المبين ، الذي أحكمت آياته... صدر عن تصور كلي باللغة متجاوز. وهذا لا يتاح للبشر في نصوصهم التي صدرت عن تصور جزئي مما يدعوهم لمعاودتها تغييرًا وتطويرًا كلما سنحت الفرصة لهم بذلك.

3- ثمة هدف محوري كلي مبثوث في القرآن كله ؛ ذلك (أن جملة ما في القرآن من مختلف المواضيع والمعاني الجزئية ، إنما يدور جميعه على معنى كلي واحد ، هو دعوة الناس أن يكونوا عبيدًا لله بالفكر والاختيار كما خلقهم عبيدًا بالجبر والاضطرار، وأن يدركوا أن أمامهم حياة ثانية بعد حياتهم هذه... فالقرآن شأنه أن يبث هذا المعنى الكلي الخطير من خلال جميع ما يعرضه من الأبحاث والمواضيع المختلفة من تشريع ، ووعد ووعيد ، وقصة ، وأمثلة ، ووصف ، وإنما يتحقق ذلك بهذا النسق الذي جرى عليه من التداخل والتمازج في المعاني) .

4 - يتصف أسلوب القرآن الكريم بسمات أسلوبية منها : مجاوزة الأنماط السائدة في الحبك والسبك. والخصائص الإيقاعية والتركيبية والدلالية و الوجدانية. اقتصاد باللفظ ، ووفاء بالمعنى ، إقناع وإمتاع ، بيان وإجمال، تأثير في النفوس، وسلطان على القلوب ، استثمار الألفاظ القليلة للتعبير عن القضايا الكبرى ، احتمال النص لمعاني كثيرة ، واستحضار المشاهد ، وتجسيم الأحداث .

في ضوء هذا ستتم دراسة أسماء المفعول في القرآن الكريم في عموم سياقاتها التركيبية والدلالية و الإيقاعية... ومما تكشف لي في ضوء ما سبق القضايا الأسلوبية الآتية :

1) انتظام أسماء المفعول في ظاهرة أسلوبية هي الدلالة على النعيم المقيم.
2) انتظام أسماء المفعول في ظاهرة أسلوبية هي الدلالة على العذاب الأليم.

و فيما يلي بيان القول في هاتين الظاهرتين .

1- انتظام أسماء المفعول في ظاهرة أسلوبية هي الدلالة على (النعيم المقيم):

نعيم الجنة بوصفه جزءًا من المعنى الكلي الذي سبقت الإشارة إليه ، قدمه البيان الإلهي في مشاهد كثيرة بأسلوب من سماته : الجودة في السبك ، والإحكام في السرد ، والعذوبة في السياق ، والجمال في النظم ، ومخاطبة العقل والقلب ، والترابط في الأجزاء ، وتصوير المعاني في الذهن ، وإبرازها في مشاهد كأنها حاضرة ، والتأثير في الوجدان، والعامة والخاصة. في ضوء هذه السمات يمكن رصد أسماء المفعول في السياقات التي تتناول النعيم المقيم كما قدمته مشاهده المتعددة ، ومنها : أثاث الجنة ، وشرابها ، وثمارها ، وإنسانها :

أما ما جاء صفة في الأثاث الفاخر المريح المُرتب الجميل ، فمنه: سرر أهل الجنة التي وُصفت بأنها (مصفوفة) ؛ أي جعلت على خطوط مستويـة ، و (مرفوعة) ، والرفع يقال في الأجسام الموضوعة إذا أعليتها عن مقرها وتارة في المنزلة إذا شرفتها وأفضل السّرر ما كان مرفوعًا ، و(موضونة) بمعنى مُحْكَمَة بعضها في بعض ؛

أو مُشبّكَة بالذهب. أو كالفرّش التي وصفت بأنها (مرفوعة) أي :شريفة وكالزرابي، وهي البسط ، أو الطنافس التي لها خمل رقيق - التي وُصفت بأنها (مبثوثة) بمعنى مبسوطة ، أو مفرقة في المجالس لمن أراد الجلوس عليها وهكذا نرى أن أسماء المفعول جاءت ضمن سياقات لغوية فنية جمالية تواصلية ؛ الصورة كانت بصرية لكنها تخترق الحدود المرئية ؛بدا فيها التصوير السيمولوجي أي الصورة الأيقونة ؛ (السرر، البسط ، الوسائد) أكثر ظهورًا. والوصف الذي تحمله أسماء المفعول أضفي على الأيقونة جمالًا ظاهرًا ؛ اصطفافًا ، وزينةً، ورفاهةً , والوصف (مرفوعة) بمعنى شريفة فيه جمال كامن متجذر، و كذلك فيه مجاوزة للمعنى المعجمي إلى رحاب اللغة السياقية. واسم المفعول لغةً وصورةً وجمالاً وفنًا يشكل قيمة تواصلية تأثيرية ، هدفها المتلقي بوصفه في جوهره كائنًا عاطفيًا قبل أي شيء آخر. والصورة الجميلة تفعل فعلها فيه ، وإن بدت متخيَّلة .

أما شرابها فقد وصف بأنه من رحيق (مختوم) ؛ " تَختَمُ أوانيه من الأكواب والأباريق بمسك " وقال الراغب : (ليس ذلك معناه ، وإنما معناه : منقطعُهُ وخاتمة شرابِهِ أي : سُؤرهُ في الطيب مسكٌ... ولا ينفعه طِيْبُ خاتّمه ما لم يَطِبْ في نفسه " ، فشراب أهل الجنة يتجاوز أن يكون لدفع غائلة العطش إلى أن يكون لذة للشاربين ، فهو بهذا يطمئن حاسة أخرى في الإنسان وهي حاسة التذوق التي تغدو هانئة بما نالت ، وأين هذا من الشراب الذي يشوي الوجوه ، ويقطع الأمعاء. وأواني الشرب أكواب (مَوْضُوعَة) بين أيديهم ، أو على حافات العيون الجاريات ، كلما أرادوا الشرب وجدوها ملأى . والسياقات التي ورد فيها ذكر الأكواب تذكر أن في الأكواب ما تشتهيه الأنفس ، وتلذ الأعين ، ليس في محتواها فحسب بل في شكلها أيضا. ومعلوم أن ما يطمئن غير حاسة يشتمل على قدر أكبر من السعادة والهناءة. وهذا مما عني به الخطاب القرآني في القيمة التأثيرية لعناصر اللغة المنظمة الفاعلة. وأما (فواكهها) الكثيرة، فقد وصفت بأنها (لا مقطوعة ولا ممنوعة) وطلحها بأنه (منضود) أي: مُلقى بعضُه على بعض، وسدرها بأنــه (مَخضود) أي: مكسور الشوك. وفهم دلالة فواكه الجنة إنما يتبدى في السياقات القرآنية التي ذُكرت فيها: فهي دائمة ، متاحة ، كثيرة ، متنوعة، أمنة ، مُشتهاة ، تؤكل تلذذا لا لحفظ صحة . وأسماء المفعول لها إسهامها من هذه القيمة الأدائية البلاغية في عملية التواصل بين المرسل والمتلقي.

وأما أهل الجنة من البشر، فمنهم (المقربون) ، وهي مكانة عالية بدليل أنها أطلقت على أهل

الحظوة من الملائكة والأنبياء ؛ فقد كان عيسى عليه السلام (وجيهًا في الدنيا والآخرة ومِن المقربين) وجْعِلت تسنيمُ (عَيّنا يشرب بها المقربون) والنساء فيها (كأنهن بَيْضٌ مُكنون) ، والكِنٌ ما يحفظ فيه الشيء (وَلَهُمْ فيه أزواج مُطَهرَة) , أي: مطهرات من درن الدنيا وأنجاسها . ومن يقوم على خدمة أهل الجنة غلمانٌ لهم (كأَنَهُمْ لؤلؤ مكنون) من " النضارة والصباحة والصيانة " وفي آية أخرى وصفهم الله بقوله: «إذا رأيتهم حَسبتهم لؤلؤًا منثورًا " أي :" تحسبهم من حسنهم وبياض وجوههم وكثرتهم لؤلؤًا مبددًا) ، واللؤلؤ إذا نثرَ على بساط كان أحسن منه منظومًا . وقد يتم التعبير باسم المفعول عن أمور معنوية كقوله تعالى : (أولئك في جنات مُكرّمُون) , والإكرامٌ :هو أن يُوصل إلى الإنسان نفع لا يلحقه فيه غضاضة ، أو أن يجعل ما يُوصل إليه شيئًا كريمًا؛ أي شريفا ، فكيف إذا كان المكرمٌ هو الله عز وجلَّ ، وإذا وصف تعالى بالكرم ؛ فهو اسم لإحسانه وإنعامه المُتظاهر .

و هكذا نرى أن أسماء المفعول حملت قيمًا إخبارية ذات أبعاد دلالية وتعبيرية وتأثيرية ، هدفها إنسان الدنيا وإن كان الحديث عن إنسان الجنة بما اتصف من : قُرب؛ وحفظ وطهارة ونضارة وصباحة وحسن و إكرام. وبذلك تصبح اللغة مفردات وتراكيب حاملة لمضمون مشحون دلاليا يجعل المتلقي يتأثر به .

ولو مضينا في سرد المواضع التي جاء فيها اسم المفعول في وصف مشاهد النعيم المقيم ، لطال بنا المقام ، لكن لا يد من ذكر بعض الملحوظات التي تفيد في مقاريه ما نحن فيهه وهي :

*- أن أسماء المفعول انتظمت في ظاهرة أسلوبية فدلت على مشاهد من النعيم المقيم أثاثا وشرابا وفاكهة وإنسانًا ، وكانت مشحونة بصفات حسية ومعنوية تتجاوز المعهود من مثيلاتها في الحياة الدنيا.

*- جاءت أسماء المفعول مشحونة بقيم إخبارية ، إبلاغيه ، تعبيرية ، تأثيرية.

*- لا شك في أن اسم المفعول في جانبه الأدائي التعبيري يشترك مع الفعل المبني للمجهول في (الإبهام) فمشاهد النعيم المقيم فوق التصور؛ ففيها مالا عير رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر . والقرآن الكريم يتحدث عن مَثَلِ الجنة ، فهي مبهمة لقدراتنا الإدراكية ، والتعبيرُ باسم المفعول فيه قدر من الإبهام تتم به محاكاة تلك المشاهد, يُعَزِز الإحساس بذلك القدر من الإبهام الآتي :

- مجِيءُ اسم المفعول صفة لموصوف نكرةٍ في الأعم الأغلب ، ومعلوم أن في النكرة إبهامًا سواء أكانت صفة ، أم موصوفًا.

- إن نعيم الجنــة مخلوق على هيئة معينة ليس مــن اليسير علينا أن ندرك أسرار تكوينها ؛ فنحنٌ مثلاً نعلم أن فواكه الدنيا تكون على أُمّاتها في أوقاتٍ دون أخرى ، أما فواكه الجنة فهي لا مقطوعة ولا ممنوعة ، أي : لا مقطوعة في أي وقت من الأوقات ؛ كانقطاع فواكه الصيف في الشتاء ، ولا ممنوعة ، أي : لا يُمَنعُ من أرادها بشوك ولا بُعْدٍ ولا حائط . وقيل: ليست مقطوعة بالأزمان ، ولا ممنوعة بالأثمان . ونحن نعلم أن الظل هو الموضع الذي لم تصل إليه الشمس ، ولكن أنى لنا أن ندرك تأويل قوله: (وظلٍّ مَمْدُودِ) في كون لا شمس فيه. . وعلى هذا فإن القرآن الكريم يقدم النعيم المقيمَ على سبيل التمثيل و التقريب.

- يختلف أهل التفسير في دلالات كثير مما يخص مشاهد اليوم الآخر، ولا سيما ما جاء مها بصيغة الفعل المبني للمجهول ، واسم المفعول ، كاختلافهم في قوله تعالى: (وإذا البحار سجرت) (والبحر المسجور) فقد قيل أضرم نارًا ، وقيل : غيضت مياهه. 0 و اختلفوا في قوله تعالى: (وَأَنَهُم مفرطون) فقيل: مخلفون متروكون في النار ، وقيل: منسيون مضيعون وقيل: مُعَجَّلون إلى النار، مَقدّمون إليها .

مما تقدم نرى أن اسم المفعول له إسهام غني في الدلالة على النعيم ، وتلك الجنة كما رّسَمَها القرآن : نعيمٌ مقيم, ولذة دائمة ، ومُتَعَةٌ لا تنفد وعلى هذا فإن دلالة هذه الصفات على الثبوت والاستقرار أمر لا يخفى. . وإذا كان اسم المفعول يشترك مع القمل المبني للمجهول في الدلالة ، فإنه اختلف عنه بأن احتفظ لنفسه بالدلالة على الثبوت والاستمرار، في مقابل احتفاظ الفعل بالدلالة على الحركة والتجدّد . وهذا الذي تقدم لا يعني بحال من الأحوال إغفال دور الصيغ الأخرى ، أو التقليل من وظيفتها التعبيرية في وصف نعيم الجنة ، فإذا كان القرآن قد وصف النساء في نعيم السابقين ، وهم أعلى الخلق ، بأنهن (فيهن قاصرات الطرف) ، ووصفهن في نعيم أصحاب اليمين ، بأنهن : (حورٌ مقصورات في الخيام) . فإن الدكتور السامرائي يرى أن اسم الفاعل (قاصرات) أبلغ في الدلالة على النعيم المقيم من اسم المفعول (مقصورات) .

وقد جاءت صيغة (فعيل) مشتملة على قيمة تعبيرية أكثر من (مفعول) في قوله

تعالى: (فجعلناها حصيدًا كأن لم تغن بالأمس) فقد " أقيم فَعِيّلٌ مقام مفعول لأنه أبلغ منه ، ولهذا لا يُقال لمن جـُرح في أنملته جريح ، ويقال له : مجروح " . ومن هذا مُكسور وكسير ، ومقتول وقتيل ، ومحمودٌ وحميد ،ومكحول وكحيل . ومن هذا يتبين أن (فعيلًا) تفيد الشدة والمبالغة في الوصف ، وأن (مفعولاً) تدل على الشدَةٍ والضعف .

المصادر

1. ا.د. عبد الفتاح محمد محاضرات في فقه اللغة العربية
2. وافي، عبد الواحد *فقه اللغة* .القاهرة: دار نهضة مصر، 1971م.

3. أنيس، إبراهيم *في اللهجات العربية* .القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، 1960م.

4. حسن، تمام *.اللغة العربية معناها ومبناها* .القاهرة: عالم الكتب، 1985م.

5. مبارك، زكي *.فقه اللغة وخصائص العربية* .القاهر ة: مطبعة لجنة التأليف والترجمة، 1940م.

6. حجازي، محمود فهمي .*علم اللغة العربية* .القاهرة: دار غريب، 1994م.

7. حسين، محمد الخضر *.القياس في اللغة العربية* .القاهرة: المطبعة السلفية، 1956م.